

مبادئ الحركات النسوية بين تجسيد الواقع الأنثوي ومحاولة إثبات الذات

د. إسعد فايزة زرهوني

جامعة مستغانم (الجزائر)

zerhounifaiza@yahoo.fr

المقدمة :

إن واقع المرأة على مر العصور وصورتها التي لم تكن تخلو من الإحتقار و التهميش ، والذل والمهانة والتي جعلتها تعيش في تبعية دائمة لسلطة كرزمانية تجدها أمامها بمجرد الولادة وهي السلطة الذكورية والتي جعلتها تعيش و لفترات طويلة من الزمن حبيسة نظرة دونية لا طالما إعتبرتها جسدا له دور فقط في تلبية شهوات الرجل وجسد مرتبط بالجنس فقط ، كما أن هذه النظرة عن المرأة ربطتها بمفاهيم عديدة كالحرمان و الجنس و العار في مجتمعات لم تكن تعطي للمرأة أي حق من الحقوق ، متجاهلة واقعها الأنثوي وذاتها المفقودة التي طالما بحثت عنها في طي التاريخ . رغم أنها لعبت ولا زالت تلعب دورا مهما في المجتمع وتحتل مرتبة حساسة في الهرم الاجتماعي لأي مجتمع بصفتها تشكل العمود الأساسي لقيام الأسرة ، وذلك نظرا لأنها يعزى إليها أسمى وظيفة في الوجود وهي وظيفة الإنجاب ، كما أنها المدرسة الأولى التي تربي الطفل وترعاه وتلقنه قيم مجتمعه وثقافته فهي المسؤولة على عملية التنشئة الاجتماعية . وقد تفتنت المرأة لدورها الفعال في المجتمع وأصبحت تناضل من أجل تغيير هذه النظرة و إثبات ذاتها ووجودها حيث أوصلت صوتها في المحافل الدولية من خلال خطاباتها لتبين دورها كفاعل اجتماعي ، ومع الإنفتاح العالمي وتزكية مبادئ العولمة ظهرت حركات نسوية تنادي بحقوق المرأة ، وتطالب بمساواتها مع

الرجل .ولكن الإشكال المطروح هو هل تمكنت هذه الحركات من خلال خطاباتها النسوية أن تجسد الواقع الأنثوي وتثبت ذات المرأة في إطار مبادئها ؟ .

إن ظهور الحركات النسوية في العالم وخطاباتها المشددة ضد العالم الذكوري جاء مناهضا للواقع الأنثوي للمرأة الذي يعطينا صورة جلية عما كانت ولازالت هذه الأخيرة تعيشه في مجتمع ذكوري لا يعترف فيه إلا للرجل بعضويته . هذا الواقع الذي صورته حتى الروايات و الكتابات لم تنصف المرأة وجعلتها دائما كائنا ضعيفا بحاجة إلى حماية ، وكان الحديث عنها حتى في الشعر ومنذ القدم إلا عن جسدها و محاسنها ومفاتنها مما جعلها عنصرا للإغراء فكان يتغزل بها الشعراء، وكانت على مر العصور وصمة عار لأنها مرتبطة بالجنس و الشرف "المرأة محكومة في عالمنا ومجتمعنا بفكرة كونها عورة وهي الفكرة التي سوقها رجالات غالبية الأديان خوفا من حضورها وتأثير دورها الاجتماعي على مدى القرون الماضية "1 والحديث هنا خصوصا عن الديانة اليهودية و المسيحية ، وهذه النظرة ترسخت في الذهنيات وجعلت من المرأة كائنا ضعيفا وناقصا ، فحواء خلقت من ضلع رجل سيدنا آدم ، ولطالما كانت المرأة نذر شؤم وشيطان والسبيل إلى جهنم لأنها سبب الفواحش وهي التي تؤدي بالرجل إلى إرتكاب الزنا لأنها مصدر الغواية " المرأة باب جهنم ، طريق الفساد ، إبرة العقرب حليفة الشيطانأفضل الاجتماع بالشيطان على الاجتماع بالمرأة لأنها تقتادني حتما إلى الخطيئة "2 وهنا تظهر النظرة الدونية التي منحت للمرأة والتي جعلت الرجل دائم الجوع إلى جسدها وينظر إليها على أساس الجنس وجسد للغواية و المتعة ، وبالتالي هو الذي يؤدي إلى الفسق و الحرام ، وهذه النظرة السلبية التي أعطت للمرأة وضعا دونيا هي نظرة مكتسبة إنطلاقا من السياقات التاريخية و العلاقات الاجتماعية التي عاشت المرأة فيها . كما أنها مستقاة من طبيعتها الأنثوية و التي تعتبرها جسدا لأنها ناقصة دين وعقل "الرجل الإله روحا و المرأة الشيطان جسدا "3 و"هي في نظر التقاليد أصل الغواية و الفتنة و الشر و التعاسة "4 و إذا كانت هذه النظرة العامة للمجتمع عن المرأة فإن نظرة المفكرين عنها لم تخلو من التهميش و الإحتقار فمونتيسكيو إعتبر النساء موجودات ذات أرواح حقيرة وضعيفة الدماغ متكبرة ومحببة لنفسها أي أنانية ، وفلاسفة العقد الاجتماعي الذين طالما نادوا بالحرية الطبيعية الموجودة بالفطرة فإنهم لم يولوا المرأة وحريتها أهمية

فجان جاك روسو يقول عن المرأة أنها وجدت فقط من أجل الجنس و الإنجاب ، و أفلاطون صنفها ضمن العبيد والمخبولين و المرضى ، أما ديكارت ربط العقل بالذكر و المادة بالمرأة ، وما هذا العرض إلا إثبات للواقع الأنثوي الذي كانت تعيشه المرأة والذي لم يعطيها أي حق من الحقوق بل أهدرها كلها وجعلها رهينة سلطة ذكورية مفروضة عليها محتم عليها الإستجابة لها و الخضوع ، ونظر لهذا الواقع الأنثوي ناضلت ومازالت تناضل المرأة حتى تحصل على حقوقها وتحقق ما تصبو إليه وهو الإعتراف بها كذات موجودة وحاضرة وعضو فعال في المجتمع حيث لا يكتمل هذا الأخير إلا بها . ومع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي ضمن حقوق الأفراد بدأت تتأكد حقوق المرأة ، وما اليوم العالمي للإحتفال بعيد المرأة إلا دليل على هذه الحقوق وتأكيد لمكانتها كذات محورية تدور حولها الحياة الإجتماعية ، وظهرت الحركات النسوية و الخطابات النسوية ، وما مفردة النسوية إلا تعبير عن وجود المرأة كعضو حي وفعال له حقوق وفرص متساوية مع الرجل في مختلف مجالات الحياة علميا و عمليا ، ويكفي القول أن هذه المفردة ظهرت كنتيجة للواقع الأنثوي الذي طالما شهد له التاريخ عن معاناته في مختلف الحقب التاريخية بفضل المكانة المتدنية التي فرضتها تشريعات إجتماعية وتقاليد وسلطة النظام الباتريكي والذي أعطى للذكور حق السيطرة و الإعتلاء في قمة الهرم الإجتماعي ، هذا الهرم الذي إحتلت فيه المرأة مرتبة أقل من دورها الذي وجدت لأجله و التي هي مكلفة للقيام به ، والذي يجعلها أول دعامة في بناء الأسرة و أول أساس في عملية التنشئة الإجتماعية لأنها الفاعل الإجتماعي الوحيد داخل المجتمع المنوط للقيام بهذا الدور الفعال فهي الأم و الأخت و البنت و الجدة وبالتالي هي ذلك الكائن الجسماني المليئ بالمشاعر الذي يعطي بدون مقابل وهمه الوحيد هو تحقيق السعادة للآخرين . فخلقت المرأة ووجدت نفسها تحت سلطة نظام يجعلها خاضعة للسيطرة الذكورية بإقتناع ودون منازعة وعليها الخضوع لها بطريقة بديهية ومقتنعة "كانت المرأة جزءا من نظام البيت ، تتبع زوجها وتكون تحت رعايته و إمرته دون رأي أو حق " 5 وبالتالي تجد نفسها تابعة للرجل ، وعموما هي تابعة لنظام لا يعترف لها بحقوق و إنما يطالبها بواجبات رغم أنها وعلى مر العصور يشهد لها التاريخ أنها وقفت ندا مع الرجل وساعدته في جميع المجالات ، و مع هذا الواقع الذي فرض عليها حاولت منذ سنين مضت أن تعمل على إثبات ذاتها و تأكيد وجودها وتجسيد واقعها الأنثوي بمختلف الطرق حتى تثبت وجودها وما الحركات النسوية إلا وسيلة وجدتها المرأة

لإسماع صوتها وضمان وصوله للآخرين ، فخرجت للعمل وجعلته حقا تتمتع به و حرصت على إكمال دراستها للوصول إلى أعلى المراتب التعليمية كما تقلدت مناصب عالية ووصلت إلى رئاسة كما ساهمت في بناء التكنولوجيا و تطويرها و أصبحت تشارك الرجل في أموره الحياتية فتحصلت على درجة من الحرية و الإستقلالية " لقد اثر عمل المرأة على وضعها النسبي في المجتمع حيث أعطاهم نطا من الإستقلال و الحريةالأمر الذي جعل حقوقها و إمتيازاتها تمتد إلى مجالات عديدة . " 6 ،وبذلك إستطاعت أن تقضي ولو على جزء من تلك النظرة التي همشتها وحرمتها من التعليم ، خصوصا في المجتمعات العربية " إن التقاليد العربية تؤكد على تفوق الذكر و تبعية الأنثى في المجتمع المنبثق أساسا من القيم الإجتماعية التي تؤكد أن مكان المرأة البيت حيث يعولها الذكر وهي كفتاة ليست مضطرة للذهاب إلى المدرسة ، وإذا ذهبت فليست مضطرة لمواصلة التعليم لأن هذا الأخير ليس شرطا ضروريا للزواج و الأمومة اللذين هما هدف الحياة "7 وهنا يظهر أن المجتمع يعطي أهمية للزواج و الأمومة وليس التعليم ويعتبرها هدفا في الحياة ، وبالتالي يحدد دور المرأة في البيت ، وكذلك يظهر التمييز الموجود بين المرأة والرجل الذي يجعله المجتمع العائل والمرأة تابعة له وهذا التمييز موجود في الثقافات المختلفة ومنذ بداية الخلق "إن التمييز ضد المرأة ملموس منذ مجيئها للحياة "8 .

ولكن ورغم الحرية التي تحصلت عليها المرأة في يومنا الحالي تبقى هذه الحرية نسبية و مقيدة وليست مطلقة لأنها لازالت خاضعة للرجل و تابعة له ، ولازالت تعان من السلطة الذكورية والنظام الباتريكي وتعاني مع ذلك التهميش و العنف و غيرها من المظاهر التي تحد من مكانتها ، ومع الإنفتاح العالمي و التغيرات الإجتماعية التي تعرفها المجتمعات ظهرت الحركات النسوية كحركات تطالب بالتغيير و القضاء على الأسباب المؤدية إلى تهميش المرأة وجعلها ضعيفة وبالتالي تنادي بحقوق المرأة كفاعل إجتماعي من خلال مطالب ومن خلال تأكيد مفهوم "الجندر" أو النوع الإجتماعي من أجل إلغاء الفروق بين الجنسين لأنه ينزع صفة الأنوثة لتحقيق المساواة بين الرجل و المرأة لأنه يعتبر المجتمع غير مقسم على أساس الجنس و إنما يوجد نوع إنساني واحد هو الجندر و يعتبر هذا المطلب أهم مطلب تنادي به هذه الحركات في خطاباتها لأنها ترفع شعار التماثل الكامل بين الرجال و النساء .

ولكن عند الوقوف على هذا المطلب وتحليله فإننا نجد أن هذه الحركات موقفها ناتج عن ما عاشته المرأة في الغرب من إحتقار أولا وثانيا هذا الموقف ناتج عن إلغاء الآخر الذي يقود إلى إلغاء النفس "الفتاة التي تكره الرجال ربما تكره أنوثتها ، كما تبغض النساء المنجذبات إلى من يغير جنسهن"9 وبالتالي هناك إخفاء للأنوثة أي تجريد الذات من الحب و الجنس و إفقارها ، فالحركات النسوية تريد أن تخلق من نفسها كائنا جديدا أي تولد الولادة الثانية ومن جديد لتتحرر من القيود و التقاليد الجائرة وهنا تكون القطيعة مع الولادة الأولى القائمة على أساس الجنس و النوع لأن الولادة الثانية تلغي الجنس وتتبنى الجندر أو النوع الاجتماعي . وهنا رفض للأنوثة المتعلقة بالضعف و الحاجة إلى الحماية و التبعية . ولكن و إن كانت مطالب هذه الحركات التحررية النسوية تتوافق مع طبيعة المجتمع الغربي إلا أن الدين الإسلامي يرفضها تماما لأن الإسلام حرر المرأة و قدسها و أعطاهم مكانة مرموقة في المجتمع وحفظ لها حقوقها كي يضمن وجودها ، وخصها بأنبيل إحساس هو الأمومة حيث جعل الجنة تحت أقدامها ،وعلى خلاف نظرة الديانات الأخرى للمرأة فهو نظر إليها كمخلوق مثلها مثل الرجل له حقوق وعليه واجبات .

وقد جاءت الخطابات النسوية مناهضة لما تعيشه المرأة في الواقع وضمنت القوانين الوضعية حقوقا للمرأة إلا أنها لازالت تعاني من السلطة الذكورية التي تسيطر عليها في مجتمع تحكمه التقاليد مما يجعل هوة بين الخطاب الديمقراطي والواقع الحياتي في مسألة المرأة ، ففي الوقت الذي تمنح فيه الديمقراطية الحقوق للأفراد لازالت المرأة تعاني الضغوط وتعاني نقص في إثبات ذاتها لأن السلطة الذكورية لم تتح لها فرصة إثبات وجودها سلطة متطرفة . وإذا كانت مطالب الحركات النسوية فيها إجحاف في حق الرجل وفي حق المرأة نفسها لأنها تسلب حقها في الأمومة و الزواج ولكن خطاباتها تمكنت من أن تنادي بحريتها وتحقق ذاتها المفقودة وتمكنت من أن تكون شريكا اجتماعيا وبالتالي أثبتت الواقع الأثوي المير الذي عانتها المرأة وأكدت على ذاتها وحريتها المسلوبة في عصر يطالب فيه كل عضو في المجتمع بأن يكون فاعلا اجتماعيا يؤثر و يتأثر حتى يواكب التنمية ومطالب العولمة ، ويؤكد على أن المرأة ليست جسدا

فقط و إنما هي ذات تفكر وتعمل و تتعلم و بإمكانها تحقيق النمو و التطور إلا أنه تبقى مطالب هذه الحركات معادية للواقع الاجتماعي و الديني لأنها في الوقت الذي تطالب فيه بحقوق المرأة هي تسلبها أبسط الحقوق في الحياة وهي الأمومة ، لأنه لا يمكن أن نصل إلى بناء مجتمع أنثوي لا يلعب فيه الذكور أي دور مميز ، إذ لا يكتمل المجتمع دون وجود شطريه المميزين هما المرأة و الرجل ولا يستمر النوع الإنساني الذي تنادي به هذه الحركات إلا عن طريق التناسل و الإنجاب و بالتالي بوجود المرأة والرجل .

لذلك يمكن القول أنه و إن نجحت هذه الحركات و خطاباتها في فك قيود المرأة التي كانت سجيئة إعتقادات وتقاليد إلا أنها جعلتها تدور في دوامة مفرغة وعض أن تبحث عن سبل الرقي بالمرأة ومشاركتها للرجل فإنها تحاول لأن تلغي بمفهوم الجندر كل مستويات الكينونة الوجودية ، وأن تنمي هوة بين جنسين لا يمكنهما الانفصال ، لذلك و إن كان موقف الخطاب النسوي إيجابى إلا أنه في الوقت ذاته يعترف بنوع من السلبية في إعطاء قاعدة علمية لمبادئه ومطالبه التي يمكن من خلالها أن يجعل المرأة لها دور فعال في تعزيز مبادئ العولمة و التحديث والرقي و بالتالي الإثبات الفعلي للذات الأنثوية و ليس الإثبات الجوهري فقط .وهنا يطرح السؤال نفسه هل هذه المبادئ هي فعليا تضمن لها حقوقها أم أنها محجفة في حقها ؟

قائمة المراجع :

- 1- شبر الفقيه ، المرأة العربية المعاصرة و إشكالية المجتمع الذكوري ، دار البحار ، بيروت ، دون تاريخ ، ص87
- 2- جان نعوم طنوس ، المرأة و الحرية ، دراسات في الرواية العربية النسائية ، دار المنهل اللبناني ، بيروت ، 2011، ص41
- 3- مراد بن حرز الله ،الجسد الأنثوي في الفكر الإسلامي ،دراسة مقارنة تحليلية نقدية ، فعاليات الملتقى الدولي إشكالية الجسد في الخطاب العربي الإسلامي ، 2012 ، ص122

- 4- نخبة من المتخصصين ، علم الإجتماع الأسري ، الشركة العربية المتحدة للتسويق ، القاهرة، 2008، ص 489
- 5- سناء حسنين الخولي ، الأسرة و الحياة العائلية ،دار المسيرة ،عمان ، ط1 ، 2011 ، ص93
- 6- سناء حسنين الخولي ، الأسرة و الحياة العائلية ، مرجع سبق ذكره ، ص 91
- 7- كريمة كريم ، المرأة العربية و النظام الإقتصادي الجديد ، مجلة المستقبل العربي ، لبنان ، العدد 39، سنة 1982 ، ص63
- 8- عاطف عبيد ، عوامل الوضع التقليدي للمرأة العربية ، مجلة المستقبل العربي ، العدد 52 ، لبنان ، سنة 1983 ، ص54 .
- 9- جان نعوم طنوس ، المرأة و الحرية ، دراسات في الرواية العربية النسائية ، مرجع سبق ذكره ، ص52-53 .